مقاييس نقد الشعراء و تصنيفهم عند ابن رشيق

أ.محمود بن راس
باحث دكتوراه بجامعة اسطنبول (تركيا)

Abstract :

Ibn Rachiq was distinguished from the various North African critics by the genius that made him a pioneer of this art in this country, and this is not for abundance or the uniqueness of his opinions, but because of his systematic discipline and the clarity of his vision. So we can re-read a lot of previous critical workbooks from which Ibn Rachiq provided benefits, through his workbooks. This short presentation is a specimen of poets' criticism standards where Ibn Rachiq shows a critical philosophy aware of literature and writing purposes far from external effects such as political, religious or personal data which fall outside the context of literature purposes and nature. By this method, we may understand Ibn Rachiq's way of thinking and philosophy in criticism and writing particularly since he was in an environment free of such deep-rooted Arabic criticism movement unlike other countries

Resume :

Ibn Rachiq était différent et particulier au autres critiques maghrébins par son intelligence qui lui rend l'un des meilleurs critiques au maghréb d'Arabe Et cela n'était pas à cause de ses opinions divers et ses propres visions mais grâce de sa méthodologie précise et de sa vision claire, La raison pour laquelle nous pouvions relire la plupart des ouvrages précédents de la critique et dans lequel Ibn Rachiq a bénéficié dans ces ouvrages, Et nous avons dans les critères de la critique des poètes à partir de cette exemplaire où Ibn Rachiq montre une philosophie critique consciente d'une visée littéraire Et la rédaction loin des facteurs extérieurs tels que les données politiques, religieux ou personnels qui sortent de la littérature et de son identité et avec cette méthode nous pouvions comprendre la pensée et la philosophie d'Ibn Rachik dans la critique et la rédaction notamment il était dans un climat qui n'a reconnu le mouvement de la critique arabe lié aux époques précédents comme les autres communautés.

ملخّص :

تميز ابن رشيق عن مختلف نقاد المغرب العربي بعبقرية جعلته يكون رائد هذا الفن في هذا القطر ، وذلك ليس لإكثاره أو لتفرّد آرائه ، بل بسبب انضباطه المنهجي ، و لوضوح رؤيته لذلك يمكننا إعادة قراءة الكثير من المصنفات النقدية السابقة و التي أفاد منها ابن رشيق، من خلال مصنفاته ، و لنا في معايير نقد الشعراء من خلال هذه الورقة نموذجا ، حيث يبدي ابـن رشـيق فلسفة نقدية واعية بأعراض الأدب و الكتابة بعيدا عن المؤثرات الخارجية ، مثل المعطيات السياسية أو الدينية أو الذاتية ، التـي تخرج عن سياق أغراض الأدب و ماهيته ، و بهذه الطريقة نستطيع أن نفهم فكر و فلسفة ابن رشيق في النقد و التأليف ، خاصة أنه كان في بيئة لم تعرف ذلك الحراك النقدي العربي الضارب في جذور الزمن مثل الأقطار الأخرى .

يعتبر ابن رشيق من زمرة المؤلفين في فنّ الطبقات الذين اعتمدوا على قريحة أنفسهم في نقد الشعراء وتصنيفهم ، و هذا أمر منطقي جدا ما دمنا نذعن لابن رشيق بالتقدّم و الأولية في الأدب و نقده ، خاصـــة و أنّ أغلـــب شـــعراء الأنموذج ممن اجتمع بهم ابن رشيق أو عاصرهم على الأقل مما يتيح له الحكم عليهم بنفسه دون الاحتياج لآراء غيره ، يضاف إليه أنّ مظاهر الصناعة الفنية تبدو جلية في كتاب الأنموذج حيث أنّ ابن رشيق ألّف كتابه على فترة زمنيـــة طويلة ممّا أتاح له مراجعته وتنقيحه، و هذا من خلال تباعد تواريخ بعض الشعراء المترجم لهم في الأنموذج و الاتّساق و الدقة في الترجمات ووضوح الانتقاء والانتخاب في النصوص والأشعار.

و مظاهر التطور الفكري الناتج عن تأخّر ابن رشيق زمنيا عن الرعيل الأوّل من النقاد المؤلفين في الطبقـــات و استفادته من تلك المصنفات بادية من خلال المقاييس النقدية التي اعتمدها ابن رشيق و من خلال طريقة التأليف السهلة و المباشرة غير المثقلة بكثرة النقول و المناقشات ، إضافة إلى الاختصاص و الاختصار ووضوح الرأي فـــي الشـــاعر المترجَم .

و لم يخرج ابن رشيق في كتاب الأنموذج عن مقاييس النقد التي سلكها غيره من النقاد لكن شخصـــيته ومواقفـــه غالبة و طاغية و هذا جلي من خلال عدم احتفاله ببعض المقاييس غير الأدبية والفنية مثل المكان والزمان لدرجة أنه قد لا يذكر تاريخ مولد ووفاة الشاعر و هذا كثير في كتابه ، كإشارة منه ألاّ عبرة بالتقدّم والأولية أو أنّ التـــأخر موجـــب للأفضلية ، بل إنّ أغلب مقاييسه فنّية ، يظهر فيها إيمانه بفكرة أن الأدب للفن والقيمة ، حتى المعيار الديني والأخلاقـــي لا يبدو ابن رشيق محتفلا به كثيرا رغم استعماله له أحيانا ، و في هذا البحث سأستعرض أهم مقاييس نقد الشعراء عند علماء الأدب و موقف ابن رشيق منها :

- **الجودة :**يعتبر مقياس الجودة عند النقاد من المعايير الثابتة التي يتفقون عليها مثل ابن سلام و ابن قتيبة و القرشي و غيرهم، لكنهم قد يختلفون في ترتيبه مع غيره من المعايير ، خاصة معيار القدم والحداثة ، لكن من غيـــر المعقـــول أن نجد ناقدا لا يعتبره ، و يمكننا القول أن مقياس الجودة عند ابن رشيق في أنموذجه هو الأس الـــذي تقـــوم عليـــه بقيـــة المعايير إن كان لها اعتبار ، إذ أنه من البداية لمّا ألّف كتابه في شعراء القيروان ، كما يبدو من مكاتبة ابن النحـــوي[(1)] السابقة له و ذكر أنّه رجّح بين شعراء كتابه من ناحية الجودة يدل على ذلك، إضافة إلى الدلالة السيميائية لعنوان كتابـــه المشيرة إلى أن ابن رشيق جمع في كتابه أعلام الشعراء و عيون الشعر في زمنه ، و ليس كل الشعراء إذ البحث يثبت أنّ القيروان زمن ابن رشيق عرفت شعراء آخرين كثر وابن رشيق كان على علم بهم و لـــم يثبـــتهم فـــي أنموذجـــه ، لأسباب قد تكون متعلقة بعدم اقتناعه بشعريتهم .

و الملاحظ كذلك أن معيار الجودة عند ابن رشيق هو معيار ذوقي خاص به ، يصعب رسم حدود له ، خاصة و أنّ ابن رشيق جاء في سياق متأخّر نوعا ما عن بعض النقاشات المتعلّقة بقضايا الشعرية مثل الطبع و الصنعة و القـــدم والحداثة وعمود الشعر و غيرها، لذلك نجده استفاد من كل التجارب السابقة ، لكن يتجلّى مفهوم الجودة عنده من خلال حسن التصوير و التشبيه و لطافة الألفاظ و رفض الطبع الموحش والتصنع المتكلّف مع إحكـــام اختيـــار الـــوزن ، و حصول الانسجام في البيت و القصيدة الشعرية ، إذ كثيرا ما يركز ابن رشيق تعاليقه النقدية على هذه القضايا مثل قوله في ابن حيان الكاتب:"شاعر ذكي متوقد سلس الكلام تطيعه المعاني ، و ينساغ له التشبيه ، و تحضـــره البديهـــة"[(2)] ، و قوله في محمد بن مغيث : "كان شاعرا مطبوعا، مرسل الكلام ، مليح الطريقة ، يقع على النكت ويصيب الأغراض"[(3)] ، وقوله في أبي الحسن الكاتب : " كان شاعرا حديد الخاطر ذلق اللسان مبرزا ، حسن البصر بصناعة الشـــعر ســـالكا لجميع شعابها "[(4)] ، و مثل قوله في القفصي الكفيف : "و من قوله و هو مما طاوعته فيه القافية العويصة":

لائمي في الهوى دعني فالذي　　قدّرَ اللهُ تعالى قد فـــــرغْ
لا تلُمْني إن سلطانَ الصبّـــا　　و الهوى أفسدَ قلبي و نزغْ
إنمَّا الدُّنيا دد　فاشفَ بـــه　　لدغةَ الحبِّ إذا الحبُّ لدغْ

قال ابن رشيق: "فهذا كلام لين الشكيمة ، غالي القيمة ، قد صحت أساليبه و اطردت أنابيبه" [5].
و قوله بعد نقل أبيات الصيرفي التالية :

قَلَقْتُ فيكَ هــذه　　هذه كيف تقلــقُ
قرفت يمُنَ ميـــــةٍ　　هي من مي تفرقُ
قتري لحن مقتفٍ　　فتق من حل يرتُقُ

قال: "كل بيت من هذه الأبيات يقرأ معكوسا و هو قدرة على الكلام ليس فيه انسجام"[6] ، وأغلب ملاحظات ابن رشـــيق النقدية تدور في هذا الفلك المتعلّق بإجادة الشاعر لذلك فالمصطلحات النقدية المتعلّقة بها كثيرة جــدا ، حتـــى يصـــعب ضبطها و تمييزها والتفريق بينها فنيا مستقلة ، لكن يمكننا حصرها عموما في ألفاظ الجـــودة و الامتيـــاز و الحســـن و الملاحة و اتباع طريق الشعراء و غيرها مما يقاربها معنويا .

- **الكم و الكثرة** :اعتمد بعض النقاد القدامى قضية قلة نصوص الشاعر أو كثرتها معيارا لتصـــنيفه و اعتبـــاره بـــين الشعراء و يعتبر ابن سلام من أهم هؤلاء النقاد ، و هو يرى أن كثرة انتاج الشاعر دليل علـــى خصـــوبته الشـــعرية و مقدرته إضافة إلى توفّر البواعث لذلك في بيئته ،كما أنّ المناخ الأدبي القديم كان يفضّل الشاعر المكثر الـــذي تتـــداول أشعاره بين الناس على الشاعر المقلّ[7] ، و هو متأثّر في ذلك أشد التأثر بالأصمعي الذي استثنى الكثير من الشعراء من طبقة الفحول لأنّ شعرهم قليل بين أيدي الناس ، لذلك فلما سئل عن الحويدرة قال :"لو قال مثل قصيدته خمس قصـــائد كان فحلا "[8] ، و استثنى كذلك المهلهل بن ربيعة من الفحول للسبب ذاته[9] ، لكن مع ذلك فإن ابن ســـلام لـــم يقصـــد بالكثرة مطلقها بل الكثرة مع الجودة ، مثل قوله في طبقة عبيد بن الأبرص وطرفة الرابعة : "و هم أربعة رهط فحـــول شعراء ، موضعهم مع الأوائل ، و إنما أخلّ بهم قلة شعرهم بأيدي الرواة "[10] ، و أعتقد أنه هذا هو المنطـــق الأدبـــي المعقول إذ قد يكون سبب قلة نصوص الشاعر عائد إلى أسباب غير فنية بل أسباب أخرى لذلك يوجد من اشـــتهر مـــن الشعراء بالبيت أو البيتين أو القصيدة الواحدة ، يقول الرافعي : "و لا يبعد أن يشتهر الشاعر الجاهلي بالقصيدة الواحـــدة بل الأبيات القليلة بل البيت المفرد ، لأنهم يزنون الكلمة بمقدار ما تحرك من ميزانها الطبيعي الذي هو القلب "[11] .

أما ابن قتيبة فإنه لم يعر الكثرة أو القلة كبير الاهتمام مع ملاحظة إشارته لذلك أحيان كمؤشر إلى أنّه لا يعتمـــده لكنه يعتبره أو يستأنس به أحيانا ترددا لبعض أقوال سابقيه مثل قوله في الأعشـــى :" الأعشـــى هـــو رابـــع الشـــعراء المتقدمين و هو يقدم على طرفة لأنه أكثر عدد طوال جياد"[12] ، و الشأن نفسه بالنسبة لابن المعتز الذي لا يعتبر قضية الكم معيارا نقديا مع أنّه يذكر ذلك على سبيل الملاحظة لا غير مثل قوله في منصـــور النّمري : " و أشعار النّمري في آل الرسول عليهم السلام كثيرة جيدة ، من أجود ما مدحوا به"[13].

هذه هي مواقف بعض أهم النقاد في قضية قلة الشاعر أو إكثاره ، و يبدوا أنّهم متأثرين فيما ذهبوا إليه بعلمـــاء الحديث الذين يعتبرون اشتهار الراوي بالرواية مع إكثاره منها إضافة إلى ضبطه و صدقه مـــدعاة لقبـــول روايتـــه ، إضافة إلى ضابط آخر يعتمده علماء الحديث و هو أن النص قد يكون مشوبا بأحد أسباب الضعف يرفع عنـــه ذلـــك إن اشتهر بين العلماء و عمل الناس به[14] .

كما نلاحظ كذلك أن أغلب النقاد من لدن الأصمعي لم يقصدوا بمعيار الكثرة مطلقها بل الكثرة مع الجودة ، لكن عبارتهم تختلف و مناهجهم في المعاملة كذلك، فقد نجد ناقدا يغلّب جانبا على آخر ، لكن مع ذلك يبقى معيـار الكثـرة منفردا كذلك في غاية الأهمية إذ أنّ قلة نصوص الشاعر موجب لتأخره بسببين :

أ- قد تؤدي قلّة نصوصه إلى قصور الحكم عليه أو تعذره .

ب- قد يكون قلة شعره عائدا إلى ضعف مقدرته الشعرية ، و عدم ممارسته لأسبابها ، و هذا ما عناه ابن سـلام فـي الكثير من المواضع .

وإذا انتقلنا إلى ابن رشيق فإننا نجده لا يعير لهذه القضية كبير الاهتمام رغم أنه اعتبرها في الكثير من المواضع ففي كتاب العمدة لم يصرح في نقل لنفسه أنّ كثرة شعر القائل موجب لتقدمه لكنّه أفرد بابا للمشهورين من الشـعراء و هو يقصد أولئك الذين لهم شعرا كثيرا اشتهر بين الناس ، و أفرد بابا آخر للمقلين، و هذا التفريق منهجي و ليس فني إذ يقول ابن رشيق بأن منهجه في تأليف العمدة البعيد عن الإفراط و التفريط يوجب عليه إضافة هؤلاء المقلّـين لأنّ فـيهم الكثير من المجيدين [15] ، و هذا المنهج المعتدل حاضر في الكثير من المحاورات عند ابن رشيق.

و بالانتقال إلى كتاب الأنموذج فإننا نجد كذلك أن ابن رشيق أعمل هذا المعيار لكن من غير أن يعتبره شرطا أو ضابطا مؤثرا ، خاصة و أن إكثار الشاعر أو إقلاله بالنسبة لابن رشيق في خصوص كتابه الأنموذج لا يعتبر مهما لأنّ أغلب شعراء الأنموذج ممن اجتمع بهم ابن رشيق أو عاصرهم على الأقل ، لذلك ففحولتهم و مقدرتهم الشعرية لا يمكن أن تفوت ابن رشيق كيف و هو الناقد و الأديب و العالم و رجل الدولة ، و إن وقع فهذا يعني أن الشـاعر لـيس فـي مصاف الشعراء عند ابن رشيق على الأقل ، وإن أورد ابن رشيق مصطلحا يخص هذه القضية فليس بمعزل عن معيار الجودة ، لكن مع ذلك فإن أغلب ملاحظاته القليلة جدا المتعلّقة بهذا الموضوع تتعلّق بقلّة شعر الشاعر ، و ارتبط هـذا كثيرا بالشعراء المصنّفين في الطبقة المتوسّطة كمؤشر إلى أنّ قلة نصوصهم متعلّقة بتوسطهم فـي الشـعرية كمـا أنّ إشارته إلى ذلك قد تكون متعلقة بقضايا أخرى كانشغال ذلك الشاعر بأمور أخرى غير الشعر مثل الزهد أو الكتابـة أو غير ذلك ، مثل قوله في الجنبياني : " كان عبد الله شاعرا ظريفا يخفي شعره و هو مع ذلك قليـل ، و يصـنعه و لا يتجاوز المقطعات إلى شيء من التطويل" [16] ، وقوله في الصدفي : "خامل رثّ الحال ، يطرح نفسه حيث وجد القناعة حتى أنّ بعضهم سمّاه سقراط لتلك العلّة تشبيها به، و ربّما أقام أحمّ[17] الناس به حولا كاملا لا يقع عليه نفورا ولواذا ، فشعره لذلك قليل بأيدي الناس"[18]، و في ابن القيني قال : "كان شاعرا مشهورا لطيفا قليـل الشـعر ، لا يقـدر علـى التطويل كثير الرواية"[19] ، و قوله في : الفارسي: "كان ترف الكلام ، نـزر الشـعر ، قليـل التطويـل ، متظـاهرا بالتأدّب"[20]، و في القطان: "كان شاعرا مشهورا بعيدا من التصنّع لا يكاد يحاوله ، قصير الأشعار ، لا يجاوز العشرين إذا طوّل" [21] ، هذه تقريبا كل المواضع التي ذكر فيها ابن رشيق معيار قلة شعر الشاعر، ولمح إلى الكثرة في موضع واحد تقريبا فيما بحثت و هو قوله في ابن غالب : "شاعر مذكور **كثير الافتنان** ، ريان الفنن ، واسع العطن في أنـواع علوم الدين و الدنيا ، قدير على التطويل وركوب القوافي الصعبة العويصة ، سريع الصنعة ، يذهب فـي الشـعر كـل مذهب ، وينحو في الرجز نحوا عجيبا ، ويتعرّب كثيرا ، و أنا أقتصر في كلامه على ما جانس الوقت وناسب الطبقـة" [22] ، و الملاحظ في أغلب نصوص ابن رشيق السابقة أنّها معلّلة أي أنّ إقلال الشاعر مرتبط بمنهجه أو أمر شخصـي يتعلّق به أولقصور قدرته الشعرية أحيانا ، وهذه الملاحظات عند ابن رشيق يحاول من خلالها شـرح قضـايا تتعلـق بالشاعر ، أو تبيين ارتباط معيار القلّة بعلة فنية أخرى مرتبطة بها ، و هذا تماشيا مع نهج الاتـزان و تـرك الإفـراط والتفريط الذي سلكه ابن رشيق .

- **الدين و الأخلاق** :لم يول أغلب نقاد القرون الأولى في التأليف النقدي للقضايا الدينية و الأخلاقية أهمية كبيرة لأنها لا تتعلّق بأمور لفظية أو أسلوبية أو فنية ، فهم لم يرفضوا شاعرا لمعاقرته للخمر أو حبه للنساء أوتعلّقه بالغلمان، أو لاعتقاده بالجبر أو الرفض أوالاعتزال أو الدهرية أو غير ذلك بل كان العبرة عندهم الأدب والفنّ ، و هذا الغالب على النقاد الأوائل مثل ابن قتيبة و ابن المعتز و غيرهما ، لكن هذا لم يمنعهم من أن يشيروا إلى بعض القضايا الدينية و الأخلاقية ، بل إنّ أكثرهم تظهر عنده الخلفية الدينية الإسلامية ، لكنّهم مع ذلك حاولوا التركيز دائما على الجوانب الأدبية و الفنية .

لكن الملفت أن ابن سلام في طبقات فحوله أفرد مبحثا للشعراء اليهود ، و هو تصرف غير مفهوم المقصد من ابن سلام، إذ أن يهود شبه جزيرة العرب لم يكن لهم ما يميزهم في أسلوبهم ولغتهم إذ كانوا مستعربين ، و تميزهم أنّهم أهل كتاب وعلوم ، أما اللغة و الأدب فإن لغتهم كانت لغة العرب و أدبُهم كذلك .

و بالعودة إلى أنموذج ابن رشيق فإن معيار النقد الديني و الأخلاقي ليس مقياسا ثابتا أو مؤثرا عنده ، إذ يلاحظ أنّ ابن رشيق كان يرفض الهجاء شأنه في ذلك شأن الكثير من النقاد و علماء الأدب ، و يلاحظ ذلك من خلال بعض تعليقاته مثل قوله في : المثقال: "شاعر مطبوع قليل التكلف سهل القافية ، خبيث اللسان في الهجاء عيار ماجن لا يمدح أحدا "[23] ، و قوله في الفراسي : " كان شاعرا خليعا ماجنا شريرا كثير المهاجاة ، قليل المداراة، خبيث اللسان" [24] ، و هذا الخط واضح عند ابن رشيق قرره في كتابه العمدة إذ يقول :"وجميع الشعراء يرون قصر الهجاء أجود ، و ترك الفحش فيه أصوب إلا جريرا فإنه قال لبنيه إذا مدحتم فلا تطيلوا الممادحة و إذا هجوتم فخالفوا" ، و قال أيضا إذا هجوت فأضحك " ثم يقول ابن رشيق : "وأنا أرى أنّ التعريض أهجى من التصريح لاتساع الظنّ في التعريض و شدّة تعلق النفس به فإذا كان الهجاء تصريحا أحاطت به النفس علما" [25] ، يضاف إلى هذا ما يلاحظ على ابن رشيق من امتعاظه من بعض الشعراء الروافظ الشيعيين مثل إسحاق بن إبراهيم الرافضي الذي قال عنه : "كان رافضيا سبابا عليه لعنة الله" [26] ، و غيره و سبب ذلك كما قررته سابقا لوقوع هؤلاء الروافض في الهجاء والطعن في مقدسات للمسلمين إضافة إلى خلافهم السياسي مع الدولة الصنهاجية ، و ما عدا الذي ذكر فإن ابن رشيق في الأنموذج لم يؤاخذ شاعرا لشربه أو سكره أوعاشقا لعشقه أو غير ذلك .

- **القدرة على الإبداع و التصرّف في الشعر** : من المعايير النقدية الملازمة لمعيار الجودة قضية قدرة الشاعر على التصرّف في مختلف أغراض الشعر، مع أنّ ذلك ليس شرطا إذ أنّ الكثير من الشعراء الذين اشتهروا في غرض معيّن مثل الملاحم أو الغزل أوالخمريات أو غير ذلك و هم في قمّة هرم الشعراء ، لكن مع ذلك يستعمل معيار تعدّد الأغراض و القدرة على التصرّف فيها معيارا تفضيليا على الأقل ، و الظاهر أنّ النقاد القدامى لم يولوا هذا المعيار أهمية الأوّلية ، لكننا نجد ناقدا مثل ابن سلام يولي هذا المعيار أهمية و هو في ذلك مثأثر بأستاذه الأصمعي الذي كان يفاضل بين الشعراء أحيانا باستخدام هذا المعيار ، فحين سئل عن الأعشى قال:" إنّ أهل الكوفة لا يقدمون على الأعشى أحدا ، قال و كان خلف لا يقدمّ عليه أحدا ، قال أبو حاتم لأنّه قال في كل عروض و ركب كل قافية" [27] ، وأعمل ابن سلام هذا المعيار حين فاضل بين جرير و الفرزدق حيث قال : "كان جرير يحسن ضروبا من الشعر لا يحسنها الفرزدق"[28] و وضع الأعشى في الطبقة الأولى لأنّه كان ذا تصرف في أغراض الشعر إذ يقول: "قال أصحاب الأعشى : هو أكثرهم عروضا ، و أذهبهم في فنون الشعر ، و أكثرهم طويلة جيدة ، وأكثرهم مدحا وهجاء و فخرا ووصفا ، كل ذلك عنده "[29] ، لكن كما سبقت الإشارة فإن هذا المعيار كان للتفضيل كما يبدو و ليس أصلا في التصنيف خاصة و أنّ الكتابة في الأغراض هي قضية ذاتية و ذوقية بأسباب نفسية و اجتماعية فكثيرا ما يتعلّق الشاعر بغرض أو أغراض لظروف قسرية محيطة به خاصة فيما يتعلّق بالرثاء و الهجاء مثلا.

في كتاب الأنموذج عند ابن رشيق لا يختلف الأمر كثيرا كما هو عند ابن سلام ، إذ أنّ ابن رشيق يلمح في العديد من المواضع إلى مقدرة الشاعر على التصرّف في أغراض الشعر كتعزيز لإبراز مكانة الشاعر و مرتبته ، و ليس شرطا أن يكون الشاعر قد كتب في كل أغراض الشعر و هذه إشارة لإلمام النقاد بفلسفة الشعر المتعلقة بالنفس إذ للشعر أسباب تستدعيه عادة فاختصاصه أو عدمه قضية ذوقية و ليست موضوعية .

لكن مع ذلك فإنّ ابن رشيق يشير إلى أن مقدرة الشاعر على التصرّف في أغراض الشّعر و تنوّع إبداعه يكسبه مزية إضافية عن غيره كما يقول في الحروري النحوي : " و في شعره من القوة والتصرّف و التصنّع ما ليس في شعر غيره من أصحابنا ، و هو مع ذلك كثير " [30] ، و قال في محمد بن مغيث : " كان شاعرا مطبوعا ، مرسل الكلام ، مليح الطريقة ، يقع على النكت و يصيب الأغراض " [31] ، و في الخولاني: " شاعر ماهر ، صاحب قواف شرّد و لغة عويصة إذا شاء ، و له قدرة على الكلام يأخذ من رقيقه و جزله ، و يسلك في حزنه و سهله مع حفظ للغة العرب و معرفة بفصول الشعر" [32] ، و في ابن شرف : " ابن شرف : شاعر حاذق متصرّف كثير المعاني و التوليد، جيد المقطعات و التقصيد لا ينكر حذقه"[33] ، و في أبي هلال التجيبي "هو شاعر معروف حسن الطريقة ، متصرف بين التصنع و الاسترسال أحيانا ، صاحب مكاتبات و مضمرات و معمى ومطيرات ، وملح ومفكهات و مدحه قليل" [34] ، وفي المسيلي: " كان شاعرا مطبوعا ، سريع الصنعة جسورا على الكلام و المعاني الأبكار من غير براعة في العلم و لا تقدم في الطلب ، ...كنت أناوله المعاني و أفتح له أبواب الكلام إلى أن دخل الجملة و أنشد في المحافل، ومدح الأشراف ، ثم لم يزل حتى نابش الشعراء و تصرّف كيف شاء في القطع والقصائد" [35] ، هذه بعض الأحكام من ابن رشيق في خصوص هذه القضية التي يشير من خلالها أنّ التصرف في أغراض الشعر يكسب صاحبها قيمة إضافية ، و لم يشترط أحد من النقاد أن يقول شاعر في غرض معين حتى تستبين مقدرته الشعرية ، أو يتجنّب غرضا معينا كالمدح مثلا حتى يعيّن في مصاف الفحول ، بل العبرة بالإجادة في أي غرض قال فيه الشاعر ، رغم ما نجده عند النقاد من تفضيل لأغراض على أخرى كما هو حال ابن رشيق في استهجانه للهجاء ، يعني أن الموضوع الشعري لا يهم بقدر ما تهمّ الشعرية نفسها ، رغم أنه يبدي مزيد العناية بأولئك الشعراء الذين يمدحون السلاطين الصنهاجيين .

- **الزمان :**أثارت قضية الزمان قلاقل فكرية و أدبية كبيرة بين أنصار القديم و أنصار الحديث من الشعر ، وانعكس ذلك على واقع التصنيف في كتب الأدب و النّقد و على كتب الطّبقات بشكل أكبر حيث نجد ناقدا مثل ابن سلام يصنف كتابه على أساس القدم و الأكثر من ذلك أنّه يهمل شعراء كبار من المعاصرين له مثل بشّار و أبي نواس و أبي تمام و غيرهم ، و هو في ذلك متأثر بما حوله من آراء الأصمعي و ابن الأعرابي و أبي عمرو بن العلاء[36] ، و تبعه في ذلك أبو زيد القرشي الذي يقول عن القدامى : "فلما لم نجد أحد من الشعراء بعدهم إلا مضطرا إلى الاختلاس من محاسن ألفاظهم ، وهم إذ ذاك مكتفون عن سواهم بمعرفتهم " [37] ، لكنّ ابن قتيبة تفرّد برأيه القائل أنّ كل قديم فهو محدث بالإضافة إلى من كان قبله[38]بعبارة واضحة لرفضه التصنيف الزمني ، أما ابن المعتز فقد انحاز صراحة للمحدثين و ألف في طبقاتهم[39] ، اتخذ ابن رشيق في عمدته من هذه المسألة موقفا معتدلا متوازنا قوامه أنّ المعيار الزمني قاصر في العملية الأدبية، إذ أنّ كلّ قديم هو محدث في زمانه بالإضافة إلى من كان قبله كما نقله عن ابن قتيبة إذ أنّ الله تعالى لم يخص فئة بالكلام و فنونه عن أخرى [40]، وهذا ما مارسه فعلا في أنموذجه فبالرغم من أنّ الأنموذج يخص شعراء زمن و إقليم معين إلا أننا لا نلمس مفاضلة بين الشعراء بسبب أزمانهم و لا أظنه حتى رتبهم حسب تواريخهم لأن يهمل في الكثير من الأحيان زمان مولد و وفاة الشاعر و كأنّه لا يكترث بالأمر بالرغم مما يظهره من معرفته العميقة بالعلم المترجم له ، و هذا تفسيره أن ابن رشيق وجّه جلّ اهتمامه على الجوانب الفنية الأدبية في حياة الشاعر مع عدم الاكتراث بحداثته أوقدمه .

- **المكان:** لم يأخذ المكان أهمية كتلك التي أخذها الزمن في الفكر النقدي العربي القديم ، حيث أنّنا لا نجد إلا ابن سلام في الطليعة الأولى من النقاد الذين تكلموا عن الفرق بين لغة البادية و الحاضرة و ما الذي يفعله المناخ والبيئة في لغة و شعرية الشاعر حيث قال عن عدي بن زيد : "كان يسكن الحيرة و يراكن الريف ، فلان لسانه و سهل منطقه فحمل عليه شيء كثير " [41] ، و نجد عند غيره كذلك مثل ابن قتيبة و ابن المعتز بعض الإشارات غير المباشرة حول البيئة و أثرها في الشعرية ، لكنّهم جميعا لم يعملوها كمعيار للتصنيف و التفضيل ، بالرغم مما اشتهر بعد ذلك من تقسيم للشعراء حسب بلدانهم ، أما ابن رشيق فهو الآخر نقل عن شيخه النهشلي نصا مهما في أثر البيئة في الشعرية يقول فيه : "قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد، فيحسن في وقت مالا يحسن في آخر، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره. ونجد الشعراء الحذّاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله، بعد ألاّ تخرج من حسن الاستواء، وحدّ الاعتدال وجودة الصنعة، وربما استعملت في بلد ألفاظ لا تستعمل كثيراً في غيره: كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس في أشعارهم ونوادر حكاياتهم، قال: والذي أختاره أنا التجويد والتّحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر، ويبقى غابره على الدّهر، ويبعد عن الوحشيّ المستكره، ويرتفع عن المولّد المنتحل، ويتضمن المثل السائر، والتشبيه المصيب، والاستعارة الحسنة"[42] ، فبالرغم مما يبديه ابن رشيق من أهمية للبيئة إلا أنّ هذا لم يظهر أثره في كتاب الأنموذج لأنّ طبيعة الكتاب المختص بإقليم واحد ترفع عنه عنت البحث في تأثير البيئة في الشعراء ، إلا أنّه مع ذلك يورد بعض أحوال الشعراء مثل مكان مولدهم و نشأتهم و تقلبهم في البلدان لأن له علاقة ببعض القضايا الأدبية المهمة ، لكنه عموما لم يعمل معطيات الجغرافيا كأدوات نقدية في كتاب الأنموذج.

---

1)- المقصود ما نقله ابن رشيق في أنموذج الزمان في شعراء القيروان ،تح: محمد العروسي المطوي و بشير البكوش، الدار التونسية للنشر - تونس- والمؤسسة الوطنية للكتاب _الجزائر_1986م ، ص 155 ، قال : "كتب إلي - عبد الرزاق النحوي - لما صنعت هذا الكتاب صحبة نبذ أنفذها إلي لأثبتها " :

يا مبرزا إبريز خير سبيكة	**و مكللا إكليل خير متوج**
و مميزا جنسي مقدمة النهى	**إن أشكلا من عاقر أو منتج**
و مطرزا حلل البلاغة معجزا	**كل الورى ببلاغة الأنموذج**
فكأنه للسمع لفظ أحبة	**و كأنه للعين روض بنفسج**
و كأنه للقلب سحر علاقة	**في مهجة تخشى الصدود و ترتجي**
خصصت أهل الغرب منه بمشرق	**بأقر من شمس النهار و أبهج**
رجحت بين ذوي الفصاحة منهم	**و فصلت بين مرتب و مثبج**
و كشفت عن شعري لتلحقه به	**فاستر على خل لسترك محوج**

2)- المصدر نفسه ص 396 .

3)- المصدر نفسه ص 404 ، 405 .

4)- المصدر نفسه ص 360 ، 363 .

5)- المصدر نفسه ص 336 ، 339 .

6)- المصدر نفسه ص 120 ، 122 .

7)- جهاد المجالي، طبقات الشعراء ، دار الجيل ، بيروت/لبنان، مكتبة الرائد العلمية ، عمان/الأردن ط1، 1992م ص 129.

8)- الأصمعي أبو سعيد عبد الملك (المتوفى: 216هـ) ، فحولة الشعراء ، تح: ق ش. تورّي ، دار الكتاب الجديد، بيروت/لبنان، ط2، 1400 هـ - 1980 م ، ص 12، وجهاد المجالي ، طبقات الشعراء ، ص 129 .

9)- الأصمعي ، فحولة الشعراء ، ص 12.

10)- محمد بن سلام الجمحي ، طبقات فحول الشعراء ، دار المدني - جدة ، تح: محمود محمد شاكر ، 137/1 .

11)- مصطفى صادق الرافعي (المتوفى: 1356هـ)، تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ، 29/3 .

12)- ابن قتيبة ، الشعر والشعراء، دار الحديث، القاهرة ، 1423 ه ، 255/1 .
13)- جهاد المجالي طبقات الشعراء في النقد الأدبي عند العرب ص 134 .
14)- ينظر عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي ، مكتبة الرياض الحديثة – الرياض ، تـــح: عبـــد الوهاب عبد اللطيف ، 381/2 و67/1 .
15)- ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر و آدابه و نقده ، دار الجيل ، ط5، 1401 هـــ - 1981م، تح: محمد محيي الدين عبد الحميـــد 102/1 .
16)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 186 .
17)- هكذا وقعت في الأصل ص 189 .
18)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 189 ،190 .
19)- المصدر نفسه ص 286 .
20)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 318 .
21)- المصدر نفسه ص 318 .
22)- المصدر نفسه ص 289 ، 290 .
23)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 235 ، 238 .
24)- المصدر نفسه ص 146
25)- ابن رشيق ، العمدة 170/2، 173 .
26)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 78 .
27)- الأصمعي ، فحولة الشعر ص 12 .
28)- ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء 374/2 .
29)- ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء 65/1 .
30)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 162 ، 166 .
31)- المصدر نفسه ص 404 ، 405 .
32)- المصدر نفسه ص 421 ، 423 .
33)- المصدر نفسه ص 340 ، 343 .
34)- ابن رشيق ، الأنموذج ص 102 .
35)- المصدر نفسه ص 311 .
36)- جهاد المجالي ، طبقات الشعراء ، ص 114 ، 115 .
37)- أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (المتوفى: 170هـــ)، جمهرة أشعار العرب ، تح: علي محمد البجادي ، نهضة مصر للطباعـــة والنشر والتوزيع ص 11 .
38)- ابن قتيبة ، الشعر والشعراء ، 64/1 .
39)- جهاد المجالي ، طبقات الشعراء ، ص 119 .
40)- ابن رشيق ، العمدة 138/1 .
41)- ابن سلام ، طبقات فحول الشعراء 140/1 .
42)- ابن رشيق ، العمدة 93/1.